الأقوال والأفعال
في مجتمعنا اليوم

هايغ خشادوريان

منذ وقت طويل والاقوال في شرقنا الاوسط العربي تحل محل الافعال ، نقيضا لايمان العرب بان الاعمال افصح من الاقوال وان السيف اصدق انباء من الكتاب والقلم . وتشيع هذه الظاهرة في الحياة شيوعا كبيرا : فلا يوجد مجال من مجالات الحياة ، فردية كانت او وطنية او دولية ، لا تجمده هذه الظاهرة مثل ريح من رياح شباط من جبال لبنان ، او تذويه مثل موجة محرقة من صحراء مصر . واذا اردنا تبديل الاستعارات ، قلنا ان الكلمات والاقوال تحيط بنا ، في كل مكان وكل زمان ، مثل اسراب الذباب الملحاح الذي يضايقنا في ليالي الصيف الثقيلة . فهي تملأ الهواء الذي نتنفسه ، وتسوده ، وتحجب العالم المحيط بنا كسرب جراد . لقد كتب علينا ان نرى العالم من خلال ستار دخاني من الالفاظ ، وان نتيه في قفار من كثبان الكلام . فالكلمات تطنطن ، وتثرثر ، وترقرق ، وتلعلع ، وتغمغم ، وتدمدم ، وتلغو ، وتهذي ؛ وهي تحاصر ادمغتنا ، وتكاد تخرق آذاننا بقذفها المركز الذي لا ينقطع . هذا بينما يترك الجور والفساد والاهمال ، فيتراكم كالاوساخ والاتربة التي تسد طرقاتنا . فالفصاحة اعجز من ان تحقق اي نجاح في تبديدها .

ولما لم يكن ثمة اي شخص ممن له الجرأة على مواجهة الحقائق يستطيع ان يزعم ان هذا الوضع وضع مرضٍ ، فلعله من المفيد لنا ان نتفحص بعض الاسباب الرئيسية لهذا الوضع ، وخاصة الاسباب الرئيسية النفسية ، اتكالا على الافتراض المتفائل بان تفحص الوباء هو خطوة نحو ايجاد علاج لهذا الصنف الخاص من المرض — نحو القضاء على سيطرة الكلمات علينا وكأنها منوم مغناطيسي ، والقضاء بالتالي على عدم الفعالية الواسع الانتشار.

ما هي ، اذاً ، بعض عوامل هذا الوضع ؟ ماذا يجعل الناس يسكرون من الكلمات ويثملون بها وينسون بسببها الحاجة الى العمل ؟

اولا ، السبب الرئيسي ، الواضح جدا ، لهذا الوضع هو ان الكلام اسهل بما لا يقاس من العمل . فالاقوال ، على نقيض الافعال ، غالبا ما لا تكلف شيئا . ومن صفات شرقنا الاوسط ، في نظري ، ان اهليه يرغبون في ان يعلموا لكنما دون ان يتعلموا ، وان

يأخذوا دون ان يعطوا، وان ينجحوا دون ان يكافحوا، وان يحصدوا دون ان يبذروا. في الكلام لا جهاد ولا اضناء ولا ارهاق ؛ وفي الكلام اسهل ان يتقي المرء جلاد الانتقاد والنبذ والرفض . بل اكثر من ذلك : الكلام لا يتطلب تفكيرا — و التفكير ، حسبما يعرف اساتذة الفلسفة بشكل خاص ، صعب جدا على البشر عموما . ويبدو ، من الطريقة التي يتحاشى البشر بها التفكير ، ان التفكير يكاد يكون مناقضا للطبيعة البشرية . فهم يتحاشون التفكير مثلما يتحاشى الطلاب الامتحانات ومثلما تتحاشى الكنائن الحموات والحموات الكنائن ومثلما يتحاشى الاطباء الخروج من منازلهم في منتصف الليل لعيادة مريض ومثلما يتحاشى مقامر خاسر مغادرة طاولة الروليت . وما على القارىء ، اذا كان يشك في ذلك ، الا ان يستمع الى اي خطاب سياسي ، في نصف الكرة الارضية على الاقل .

بالطبع ، ليس الكلام على هذه السهولة دائما : فنحن جميعا نعرف ان اناسا قد انتبوا بعنف او سجنوا او حتى شنقوا بسبب كلامهم . فالامر يتوقف على مادة الكلام نفسه وفحواه وعلى المناسبة التي قيل فيها . الا ان هذه الاخطار غير موجودة بالنسبة الى بحثنا هذا ، لان في الشرق الاوسط (باستثناءات قليلة نسبيا) قيودا على حرية التعبير عن الفكر ؛ وبذلك فان الحكومات المختلفة ، بحرمانها شعوبها من حرية التعبير، انما تقيهم شرّ المشاكل التي قد توقعهم بها السنتهم ان هي افصحت عما في افكارهم ! يضاف الى ذلك ان الناس يستطيعون ان يلجأوا الى الازدواجية دائما : يستطيعون ان يفكروا بشيء وان يتفوهوا بشيء مختلف تماما ، بشيء مناقض تماما ، احيانا !

اننا نستعمل الكلمات في هذا الجزء من العالم لا لنكشف عن الافكار والمشاعر ، بل لنخفيها . هذا ما جعلني آنفا انعت الالفاظ بالستار الدخاني . ان معظم الكلام الذي نتفوه به انما هو الكلام الذي يحب الناس عموما ان يسمعوه — او هو ، على الاقل ، الكلام الذي يعتقدون او يتظاهرون بانهم يعتقدون انه هو الذي يحبون ان يسمعوه . وهذا امر مهم بنوع خاص ، لاننا حساسون جدا تجاه آراء الآخرين فينا، ولان رغبة المرء منا في التودد الى رؤسائه واقرانه قوية بالغة . وفي الوقت نفسه، الحقيقة في غالب الاحيان بضاعة للبيع في الاسواق ، معروضة على من يدفع اكثر من غيره — وهي ارخص من الفجل عموما . انها تعتبر كاداة فقط ، كوسيلة نحو اهداف خاصة شخصية . لذلك لا يلجأ اليها احد الا عند الحاجة . ويتخلى المرء عنها حينما لا تساعده في الوصول الى غاياته ، بل انه قد يروّج لنقيضها (وقد نلاحظ ذلك حتى في حال الاكثر ثقافة ، ومن ضمنهم الجامعيون : فكثيرا ما يتظاهر الطلاب بمشاركة استاذهم معتقداته ، لاشيء الا لارضائه !) . ليس غريبا ، اذاً ، ان نلاحظ ان الكثيرين من الناس ، في ما يزعمون انهم

يؤمنون به ، انما هم مثل « دوارة الهواء » الدالة على اتجاه الريح. زد على ذلك ان اللياقات والظروف تتحكم في حياتنا العامة ، القومية منها و الدولية، اكثر مما تتحكم المبادىء ، — وفي حياتنا الخاصة ايضا ، الى حد بعيد . لقد مضي وقت طويل منذ ان نسينا كيف نواجه الجلاد ، كيف نسمح لاسخريوطي ان يخوننا بقبلة ، كيف يُبصق علينا ونضرب ونرفع على خشبة الصليب من اجل الحقيقة .

ينتج عن رغبتنا الحادة والملحة في الحصول على رضى الآخرين عنا وحسن رأيهم فينا (وسنرى ان ذلك شكل من اشكال العبودية الشائعة) اننا كثيرا ما نحاول ان نرضي الآخرين ، دون ان نجهد انفسنا . فكثيرا ما نعرض انفسنا على شاشة الذين نعرفهم (وعلى شاشة الشعب بوجه عام، اذا كنا موظفين كبارا في الدولة وسياسيين محترفين) ونحاول ان نبدو كاصحاب غايات رفيعة وعواطف سامية ، مدفوعين بمبادىء المساواة والاخاء والحرية ، وعلى درجة عالية من الوعي الاجتماعي والحس بالمسؤولية، ان نبدو كنفوس نبيلة تجاهد وتشقى من اجل مصلحة اخواننا. اننا نأكل الحلوى ونحتفظ بها في آن واحد — ذلك مظهر مهم لسلوك المرء في الشرق الاوسط ولنفسيته . اننا نتمتع بامتيازات العمل الناجح من حيث تقبل الاعجاب والاستحسان ، دون ان نقاسي من الجد والكد وما يتضمنه العمل من متاعب . اننا ، بوجه خاص ، نأمن من الشعور بالخيبة والتعرض للنقد ، اللذين ينتجان عن الفشل .

من صفات عظاتنا وخطبنا ومناقشاتنا الخاصة اننا نعظ الآخرين على الدوام بما عليهم هم ان يفعلوا . الا ان فكرة ممارستنا نحن لما نعظهم به قلما ترد في اذهاننا . وكم نغضب ونأسى لغباء الآخرين ! لقد رفعنا التعييب والعتب والشكوى الى مستوى فن جميل . فنحن نصرّ، مثلا ، على ان على الحكومة ان تنظف الشوارع وتنظم المواصلات والسير وتعنى بالتضخم المالي وتدني الاجور — والف امر آخر ، كبير او صغير : ويخوض معظم الناس في هذه الامور كتمضية لطيفة للوقت — فهي مادة جيدة للاحاديث العابرة في حفلات الكوكتيل . كذلك يشكو الآباء والمعلمون من المدارس ومن الامتحانات العامة ومن الانظم التربوية البالية والكتب الدراسية العقيمة وغير ذلك . ويحرص الناس في كل يوم على القول اننا نحتاج الى مساعدة مالية : لكن القليلين فقط يفعلون شيئا ما لتأمين المال، او يسهمون باموالهم من مدخولهم او من مدخراتهم . اننا ننتظر تأمين المبالغ ، كلها او اغلبها ، من الحكومات المحلية او الاجنبية ، ومن المؤسسات الثقافية الدولية ، ومن وكالات الاغاثة والعمل .

يقع اللوم في ذلك على المثقفين اكثر مما يقع على اشباه المتعلمين وعلى الاميين . فان

المتعلمين يحملون شهاداتهم ويعرضونها يمنة ويسرة كما يعرض الجنرال الروسي اوسمته ، لكنهم لا يهبون انفسهم ولا يقدمون من ذواتهم شيئا . ان قادة المستقبل لا يقودون ، ومتنوري المستقبل يخلو وفاضهم الا من الظلمة في اعينهم وامام خطاهم.

ثانيا ، احدى نظريات جان بول سارتر الاخلاقية البارزة والصائبة ، ان في الانسان ميلا ابديا شاملا نحو تجنب المسؤولية ، وذلك بسبب القلق الذي لا بد ان يتأتى عن الاختيار الحر وعن التزام المرء بافعاله . ويكفي ان نتذكر بعض اعماله مثل « الذباب » و « عصر العقل » و « لا مخرج » و « ارجاء التنفيذ » لنرى الى اي حد انتشرت هذه الفكرة في نتاجه الادبي . اني اجد هذا التحليل للبشر عموما صادقا تمام الصدق ، دون ان اوافق بالضرورة على الابعاد الميتافيزيقية لهذا الرأي في فلسفة سارتر . فنادر حقا هو الانسان الذي لا يتحاشى ضرورة العمل وما ينتج عنه من ضرورة تحمل مسؤوليته ، شأن اورستس في « الذباب » . لذلك لا غرابة اذا كان معظم الناس في هذا الجزء من العالم يحاولون التهرب من الاعمال الجدية ، من الاعمال التي قد تثير المشاكل ، كيما يتهربوا من المسؤولية التي تتأتى عنها . وينطبق هذا الكلام بشكل خاص على الاعمال التي قد تبدو غير مرضي عنها والتي قد تورط صاحبها وتخلق له المتاعب . ومن المعروف ان هناك شعوبا تكره تعريض نفسها للخطر اكثر مما تكرهه الشعوب الاخرى . والشجاعة الادبية فضيلة لا يزال بعض الناس بحاجة الى تعلمها . ان الخوف من الآخرين سبب رئيسي ، لكنه ليس بالسبب الوحيد ابدا . ان ارض الانبياء العظام والشهداء والقادة الدينيين ، ارض الهجرة والجلجثة وطريق الآلام ، تكاد تخلو من رجال مستعدين عند الحاجة الى مقاساة نتائج ما يعتقدون انه حق وصواب . ثمة وفرة اكيدة في الفردية ، ولكنها فردية خاطئة في معظم الاحيان . اما الفردية التي تعني عدم الانصياع والانتماء فتكاد تكون في حكم العدم في الوقت الحاضر.

قلت انه لا غرابة انه يتجنب الناس فعلا قد يورطهم ويخلق لهم المتاعب . انما الغرابة ان تكون شعوب اخرى قد تغلبت على الميل البشري الطبيعي نحو الخمول واللافعل والتهرب من المسؤولية . والتفهم الواضح للعوامل التاريخية والنفسية لهذه الشعوب التي تغلبت بالفعل ضروري لمن يريد لنا ان نتغلب نحن ايضا على هذا الميل البشري الطبيعي .

ان هذا الميل الى تجنب العمل هو ، بالطبع ، اكثر من مجرد الميل الى تجنب المسؤولية . فان المرء قد يرفض تحمل مسؤولية عمله هو . هذا هو الشكل الذي تجده غالبا في « الذباب » (عند الكترا) وفي « لا مخرج » وفي « عصر العقل » (عند ماثيو) . الا اننا نعثر على شكل آخر من اشكال تجنب المسؤولية ، هو تجنب المسؤولية عن طريق عد

العمل ، كما في « ارجاء التنفيذ » وفي « عصر العقل » الى حد اقل . اننا نجد هذين الشكلين في بلادنا ، متصلين معاً بنسب مختلفة .

ثالثا ، معروف ان الشرق الاوسط كان في رقـاد عميق وغير متقطع تقريبا طوال عصور الحكم العثماني المظلمة . وان العالم العربي لم يبدأ بالصحو من سباته الا في السنوات الخمسين الاخيرة ، او نحوها ، وخاصة منذ ان حصل عدد من الدول العربية على الاستقلال في زمن قريب العهد نسبيا . يطلق على هذه الصحوة اسم « اليقظة العربية » ، لكنها في الواقع ليست استيقاظا كاملا دفعة واحدة . فنحن لا نزال بعيدين جدا عن خلق ثقـافة وهوية ذاتية جديدتين فعالتين . ولا نزال بعيدين عن الاضافة الى كنوز الحضارة العالمية العامـة والخالدة اضافة حقة عميقة . غير ان حالة تعطيل الحيوية التي خضع العرب لها عدة قرون بسبب السيطرة الاجنبية تفسر ، جزئيا ، الظاهرة التي نعالجها في هذا المقال . فلا شك انها اسهمت في فقدان حس المبادرة والمسؤولية تجاه النفس وتجاه الآخرين . وبسببها لم يعد الناس قادرين على العمل ، ولم يعودوا يعرفون كيف يعملون ، ولا كيف يهتمون بالعمل المهم الخطير بشكل عام . لقد جعلتهم سلبيين وخاملين (الا حيثما يكون هناك كسب شخصي ضيق) ، ولا مبالين بالخير العام ، ومقودين كقطيع من غنم .

في ظروف كهذه يتوقع المرء ، بلا ريب ، ان يجد تعطشا جامحا الى الرجال الاشداء ذوي الايمان القوي القادرين على القيادة : فيعتقد الناس ان ما عليهم الا ان يتبعوا القائد ، وان يطيعوه . ذلك انه من الصحيح ان تلبية الاوامر اسهل في العادة من القيادة ، وخاصة لدى الشعوب التي يرضع المرء فيها عادة الانصياع للسلطة مع حليب امه . فالناس والحالة هذه مرتاحون من الوحشة المرعبة التي يشعر بها القـائد والزعيم عندما يضطر الى اتخاذ القرارات ، تلك الوحشة التي احسن سارتر وصفها .

كيما يتبع المرء قائدا بدون تساؤل ، عليه ان يؤمن ، او ان يقنع نفسه ، بان القـائد يعرف افضل مما يعرف هو (وليس ذلك صعبا للغاية ، لان للمرء قدرة كبيرة على خديعة نفسه) ، وان هـذه هي الطريقة الوحيدة الفعالة لتنفيذ الافعال . وهذا مـا يجعل الدكتاتورية ، على هذه الصورة او تلك ، ذات اغراء كبير للشبان وللمتعلمين وانصاف المتعلمين ، وكثير منهم مثاليون يرفضون التراخي وعدم العمل السائدين — وذلك بسبب ازدياد ما يتوقعونه في الحياة ، وخاصة بتأثير الثقافة الغربية او الثقافة المتأثرة بالغرب . لكنهم ، هم ايضا في الوقت ذاته ، غير مستعدين لان يعملوا بانفسهم من اجل خلق الوسائل التي تمكنت الامم الاكثر نجاحا من تحقيق تقدمها بواسطتها ، اي ايجاد طريق ديمقراطي في الحياة . فيستعمل بعضهم حجة بسيطة وجذابة : هي ان شعبنا غير مؤهل للديمقراطية ،

واننا بحاجة الى مستبد عادل يمهد لنا الطريق نحو الديمقراطية - وكأن الدكتاتورية تقود الى شيء آخر ، غير مزيد من الدكتاتوريات الاخرى !

ومما هو جدير بالانتباه انه حتى اولئك الذين يهللون للرجال الاقـوياء بجهارة والذين يتمنون ان يتمتعوا بامتياز تلقي الاوامر بما يجب ان يفعلوا ، انما يحجمون عن تنفيذ مـا يؤمرون بفعله حينما يتطلب ذلك الفعل منهم تضحيات شخصية ، او تنازلات عن الممتلكات والاموال ، او خدمة عسكرية ، او تقييدا لحرياتهم الشخصية ، او غير ذلك — كما تطلب منهم في الواقع ، في البلدان العربية وفي سواها من الاماكن .

ان تأييد الاستبداد والدكتاتورية مرض نفسيا بشكل آخر يتعلق بما سبق ان ذكرت: فعلى القائد وحده ، كما يعتقدون ، يقع اللوم عند الفشل . وساقدم مثلا يوضح ما اعني: يقول مصدر يسوعي: «ان احدى التعزيات الكبيرة في حياة الرهبنة هي التأكيد الذي لدينا باننا عندما نطيع لا يمكن ان نقترف خطأ. قد يقترف الرئيس الخطأ عندما يأمرك ان تفعل هذا الشيء او ذاك ، ولكنك انت على يقين من انك لا تقترف اي خطأ ما دمت انت تطيع. فان الله لن يسألك الا اذا كنت قد اديت الاوامر التي صدرت لك . واذا استطعت ان تقدم شرحا واضحا في هذا المضمار كنت في حل كامل من التبعات . اما ما اذا كانت الامور التي فعلتها مناسبة ، او كان هناك ما هو افضل منها ، فانها اسئلة لا توجه اليك انت ، بل الى الرئيس. ففي اللحظة التي تفعل فيها ما تفعله تلبية للاوامر ، يحذف الله مسؤوليتها عنك ويضعها على الرئيس . لهذا قال القديس جيروم ، في اشادته بحسن الطاعة : ايتها الحرية السيدة ! ايتها الطمأنينة المقدسة والمباركة ، التي يكاد المرء يصبح معصوما بفضلها ! »

رابعا ، « سحر » الكلمات ظاهرة معروفة كتب فيها علماء الاجتماع والالفاظ الشيء الكثير . ان من اهم نواحي هذا السحر بنظري هو ان التكلم عما يتمنى المرء ان يحققه انما هو يشبه ، بفوائده النفسية ، الانغماس في احلام اليقظة والتخيل . فان الخيال يمضي بالمرء بعيدا وهـو يتكلم ويستفيض في آماله ورغباته ، وكثيرا مـا يحصل على سعادة تشبه (واحيانا تفوق) السعادة التي يبعثها فيه تحقيق خياله . فاذ يتكلم الانسان ، وخاصة في الموضوع نفسه ، بتكرار واستفاضة ، يتخذ ما يتكلم عنه ويصفه اسمـا ووجودا عند المتكلم . ان للكلمات خاصة التحول الى بديـل عاطفي للحالة المرجوة المبتغاة . واحدى نواحي قوة الكلمات كبديل عن الاعمال هي ان الطاقة التي يمكن استخدامها كدافع للعمل انما تبذل في التكلم عن الحـالة المرجوة المبتغاة . فيؤمن التكلم انفراجا عاطفيا وتنفيسا ، ويخف في المتكلم ذاك الدافع الداخلي لضرورة البحث عن الانفراج ، عن طريق العمل . وهذه صفة عامة للسلوك البشري ، تلاحظ في الكثير من مسالك الحيـاة . فمن الشائع ان

الذين يتكلمون كثيرا قلما يعملون ، بينما الذين يعملون قلما يتكلمون عن اعمالهم . والمتكلمون بدون ان يعملوا قلما يبدعون في مجالات الفنون الجميلة والفلسفة والعلم .

يساعدنا التحليل الآنف الذكر على شرح ظاهرة تحيرنا بتناقضها مع كل منطق: تلك هي ظاهرة استمرار ايمان الجماهير في هذا الجزء من العالم بالوعود المطاطة التي يصدرها الزعماء والقادة احيانا ، ايمانا شبه ديني، حتى حينما تكون هذه الوعود مجرد وعود انقضى على تقديمها زمن طويل . من الاسباب المحتملة لذلك ، الثقة العمياء التي تشعر الجماهير بها نحو قادتها ، وخاصة القادة الذين حققوا بالفعل انتصارات ما ضد المستعمرين ورفعوا معنويات الشعب السياسية . واعتقد ان هناك سببا آخر : هو ان الجماهير تميل الى تقبل الوعود التي تقدم لها ، بشكلها الظاهر وعلى علاتها ، لمجرد انها وعود مرضية لحد بعيد . فالجماهير تصدق الوعود لانها تريد ان تصدقها . ذلك ان الامل يعمر القلب البشري — والكثيرون لا يستطيعون الحصول على اية درجة من السعادة بدون وجود تصور وهمي او اسطورة يقتاتون بها مع خبزهم اليومي . والامل عندهم هو ، بحد ذاته ، شكل من اشكال التصور الوهمي . اما الاسطورة فيجب على المرء ان يشدها الى قلبه كواقع ملموس لتصبح لها قوة. كما ان الامل يكون فيما يعتقد المرء انه من المحتمل تحقيقه، — مع اننا نعلم جميعا من تجاربنا ان آمالنا كثيرا ما تكون مجرد دخان وضباب وسراب واحلام .

قد يكون ادراك رجال السلطة لهذه الحاجات العاطفية المتأججة خطرا جدا . لان ذلك قد يغريهم (وكثيرا ما هو يغريهم بالفعل) على استغلال هذه الحاجات العاطفية لامجادهم الشخصية ، اي لتوسيع سلطاتهم . ولكن من يجرؤ على محاولة تجريد الجماهير من تصوراتها الوهمية ؟

خامسا ، كما يعلم المطلعون على تاريخ الفكر في الغرب ، توجد فكرة خاطئة وهدامة بنظري ، موروثة عن انماط القرن التاسع عشر البيولوجية للمجتمعات البشرية ، مؤداها ان الحضارة لا بد ان « تنمو » ، بطريقة ما من الطرق ، وان تبلغ « النضوج » و « البلوغ » ، ان هي اعطيت الوقت الكافي . ان الماركسية ، بايمانها بالتقدم الحتمي الذي لا بد منه ، انما هي ابنة عصرها ، ولعلها هي ايضا عامل مهم في جعل بعض الناس يؤمنون بهذا التفاؤل الذي لا يشكون فيه . ولست ادري اذا كان لهذا الرأي من يؤمنون به في هذا الجزء من العالم ، حتى بين المثقفين . الا انه من المحتمل ان يكون مصدرا اضافيا للتقاعس عن العمل ، الذي اتحدث عنه . فان رأيا كهذا مستساغ جدا لمن لديهم ميل مسبق نحو عدم العمل، ونحو الخيال والايحاءات اللفظية فحسب. فهو من قبيل خدع الذات عقائديا ، مضفى عليه اسم « النظرة الصحيحة » للتاريخ . ولا حاجة للمرء ان يذكر ان

الحضارات البشرية تمر ، كالافراد تماما ، في « انحلال » او « موت » قبل الاوان مثلما تمر ، كالافراد ايضا ، في « نمو » او « تقدم » . وهي بالتأكيد تصاب احيانا بجمود وشلل. واذا كنا لا نريد ان يكون مصيرنا مثل ذلك ، كان علينا ان نكرس جهودنا ومهاراتنا لخلق مجتمع افضل وحضارة افيد .

وسواء ألعبت التشبيهات البيولوجية الآنفة الذكر ام لم تلعب دورا في تكوين المواقف التي اتحدث عنها ، فمما لا شك فيه ان الوباء الاسيوي المستوطن والواسع الانتشار ، وباء السلبية والاسترخاء والاستسلام للالم والعذاب والحاجة ، بدل الكفاح للتغلب على الظروف والافادة منها وصياغتها حسب مثلنا وصورتنا ، انما هو عامل في تكوينها. ان القول الرواقي « اقهر نفسك بدل ان تقهر العالم » لهو ، على حد تعبير ديكارت ، تعبير صحيح عن هذا الرأي الاسيوي . لكن بين الرأيين اختلافا مهما . لقد قامت الرواقية ، كما اشار برتراند رصل اشارة جيدة في « لماذا انا لست مسيحيا » ، في شعب لم يكن قادرا على التأثير في مجرى الاحداث العامة ، اذ نشأت بين الاغارقة الذين كانوا يعيشون في عالم يسيطر عليه اسيادهم الرومان . ولحسن الحظ لا ينطبق هذا الواقع على العرب ، الذين هم اسياد انفسهم (باستثناء مناطق صغيرة نسبيا) . ثم ان الرأي الرواقي يشمل حصيلة اتجاه معين نحو العالم يقوم على خلق معين وعلى ميتافيزيق معين ، او هو على الاقل يعبر عنهما فكريا . وهو ، كاتجاه ، نشيط وديناميي ، مع انه « سلبي » من حيث هو بديل للعمل . اما الاتجاه السائد في العالم العربي فيكاد يكون سلبيا تمام السلبية ، بمعنى آخر غير معنى سلبية الاتجاه الرواقي . فهو لا يتضمن رقابة شديدة على الذات ، ومثل هذه الرقابة هي حصيلة العزم ورباطة الجأش في المفهوم الرواقي ، بل هو تعطيل لحرية الاختيار ، وهو ايضا لا مبالاة بكل شيء تقريبا ، الا بما يحمل بين طياته كسبا شخصيا .

ومهما يكن من امر ، فان الاتجاه السلبي الاستسلامي الخاص السائد في الشرق الاوسط (اي « ان ما كان صالحا لاجدادنا يصلح لنا ») يقوم ، جزئيا على الاقل ، على ايمان بالقضاء والقدر الذي لا مرد له ، ويقوم بالتالي على كيان عقائدي جزئيا وعلى شك نصف واعٍ بقدرة الجهد الفردي وجدواه . ونتيجة لذلك فان التكلم قد يكون رد فعل غير واعٍ لهذه الاتجاه الانهزامي ، وتعويضا عنه. فمن الجلي ان المرء لا يستطيع ان يعيش طويلا بهذا الاتجاه وهو يعيه كل الوعي .

سادسا ، ان ما سبق الكلام فيه يرتبط ارتباطا وثيقا مع سبب آخر للظاهرة التي نتناولها بالبحث ، وهو سبب يراه بوضوح الاجانب الذين يقيمون في المنطقة او يكتبون عنها ، مع ان معظم ابناء المنطقة لا يرونه بالوضوح نفسه . اعني به ميل الناس ، باخلاص

وجدية ، نحو لوم الآخرين على كل خطأ في انظمتهم السياسية . وهكذا يرى الناس وراء كل انقلاب ، تاجح او فاشل ، اصابع اجنبية (وربما هم ليسوا على خطأ في ذلك دائما) . وكذلك ايضا فانهم يرون اصابع قوى الاستعمار والامبريالية الجديدة التي تعطل سعيهم نحو الوحدة، كلما عجزت حكوماتهم عن تحقيق هذه الوحدة. ان هذا التصرف منتظر من بلاد كانت تحت الاستعمار والانتداب، تجاه مستعمريها السابقين وسلطات الانتداب السابقة. لكن نتائجه النفسية والعملية تثبط الهمم احيانا. اذ لا يوجد امل كبير بتقدم اقتصادي او سياسي مـا دام الشعب لا ينمي في نفسه فضيلة معرفة الذات ونقـد الذات ، وهي فضيلة تصعب تنميتها . واننا لا نسلك السبيل الذي يحقق العلاج مـا دمنا نكتفي بلوم الآخرين على كل المصاعب والعثرات التي تعترض طريقنا .

سابعا، حري بنا الا ننسى حب العرب للالقاء الجهوري ولفصاحة اللسان ، واعجابهم بآيات البلاغة والبيان . ولا بد ان عرب الجاهلية وما بعد الجاهلية كانوا يشعرون بميل موروث او مكتسب نحو الفصاحة اللسانية مما جعلهم يعتبرون الخطابة البليغة وسيلة جيدة لاضفاء الجمال واللون على جمال الصحراء المتقشف وجوها المحرق . لقد قدّر الشاعر العربي القديم الارتجال ، تقدير فناني العصر الباروكي ومطلع القرن التاسع عشر له في الغرب . فبالغ في المهارة الفنية ، بغضّ النظر عن المحتوى او عن مدى سطحيته (واحيانا بالرغم من هذا المحتوى او هذه السطحية) . وتستمر هذه الصفة الى العصر الحاضر . وباستطاعة المرء ان يتصور كم يكون المستمعون لخطاب ما اقل تأثرا واستمتاعا به ان كان الخطاب بالعامية . لانه آنذاك يكون اصعب كثيرا على الخطيب ان يترك في مستمعيه الشعور بانه صاحب ايمان واخلاص ، اذا كان هو يختبىء وراء ستار براق من الكلمات . ويصعب عليه اكثر ، والحالة تلك، ان يملأ ساعة او ساعتين بدون ان يقول شيئا — وسيواجه ضغطا اكثر ليقول شيئا فعلا . ولعل ذلك سيكون افضل لنـا جميعا : فلنشرع في التكلم مع الناس بلغة عواطفنا وافكارنا الحقيقية ، فنرفع جسرا فوق الهوة بـين الانسان الباطني والانسان الخارجي ، تلك الهوة التي تمتد في مجتمعنا بعمق وضخامة . وعندها نقترب اكثر من الغاية التي نتطلع اليها، الا وهي تبسيط كلامنا وجعله مجرد « نعم » و «لا » ، عالمين ان ما زاد على ذلك فهو من الشيطان ! قد يظل الالقاء العاطفي والخطابة الصاخبة ، الشهيران في هذا الجزء من العالم، ويبقيان الى حد ما، وقد يستمران في تحريك المستمعين. ولكنهما لن يكفيا للسيطرة بقوة مغناطيسية تؤدي الى الرضى المطلق او الى الحماس الدافق .

ثامنا ، السبب الاخـير في بحثنا لهذه الظاهرة هو الخوف من الفشل ، الخـوف نصف الواعي او لعله غير الواعي بالمرة ، الشائع بين الجماهير وحتى بين المثقفين وسائر المتعلمين .

وهو ينبع عن عدم الثقة بقدرتنا الفردية والجماعية. ويبدو ان المفاخرة الصارخة الصاخبة ، والحس بالتفوق الثقافي المبالغ فيه الذي نكشف عنه عادة ، هما رد فعل لشعور عميق بالنقص الثقافي ، وعلامة تفضحه . وربما كان هذا الوضع هو بنفسه ينتج جزئيا عن ادراك غير واضح لحقيقة اساسية ، هي عدم وجود ثقافة محلية خلاقة متفوقة لدينا. فان معظم ما يسمى ثقافة انما هو بقايا وآثار الثقافة العربية القديمة التي صمدت في عصور الحكم التركي القاتمة ، هي و محاولات مترددة وغير اكيدة ، بعد ، لخلق ثقافة عربية معاصرة . ان العلاقة النفسية بين العرب في الوقت الحاضر وبين ماضيهم لهي فصل مهم وضخم في تاريخهم النفسي الحاضر؛ وهذا موضوع واسع لن استطيع ايفاءه حقه هنا . لكن التفوق الحضاري لماضي العرب على حاضرهم هو ، على ما اعتقد، مصدر اضافي مهم للشعور بالنقص ، شعورا غير مستتر على الدوام ، وهو يسهم في عدم العمل الناجم عن ذلك . ومن الاهمية بمكان اننا لا نجد دافعا آخر ينتج عن الحس القوي بالنقص بالنسبة الى الماضي يوازي هذا الدافع او يتغلب عليه . يكون الشعور بالنقص عند بعض الناس دافعا قويا ، احيانا ليست قليلة ، نحو الجهاد من اجل العمل والبناء . لكنه في الشرق الاوسط اليوم على العكس تماما : فلا يزال الماضي بوجه عام يخدر الناس ويفرض نفسه عليهم . الا ان هناك تضايقا ، ينمو باطراد بين الشبان والمثقفين ، من هذا الشعور بالنقص . وهناك في بعض الفنون ، كالادب والرسم ، ميل ظاهر نحو خلق انماط جديدة او استعمال وسائل جديدة لمعاناة اشكال جديدة — الا ان معظم ذلك يقع تحت تأثير النماذج الغربية .

ولكن من الجهة الاخرى لا يزال الكثيرون منا، كما هو متوقع من بعض الامور الاخرى الذي ذكرتها سابقا عن اتجاهات الناس ، ينامون على الاعجاد الذاوية ، ويكتفون بمجرد محاولة الحفاظ على الماضي . (ولنا مثال على ذلك في الفلسفة . فان كل الانتاج الفلسفي في هذا الجزء من العالم منذ بدء عصر النهضة تقريبا ، انما هو في حقل البحث ، اي في تحقيق وترجمة كتابات فلاسفة الاسلام القدماء وعرض آرائهم وتحليلها. وبودي ، دون ان اقلل من اهمية هذا النشاط العلمي ، ان ارى مفكرينا يقومون بمحاولات جدية للاسهام الخلاق في الفلسفة ، مثلما يحصل في الامم الاخرى) . انهم لا يحسون بالحاجة الى محاكاة الماضي والسير على غراره ، بخلق ثقافة تساوي ثقافة الماضي على الاقل انما تقوم على اساسه .

ولنعد الى ما سبق ذكره عن الشعور بالنقص الثقافي الذي يضايق الاكثر ثقافة ووعيا في المجتمع. مرة اخرى نجد ان احد اسبابه هو الخضوع الطويل للحكم الاجنبي ، وخاصة لبريطانيا وفرنسا ، المتفوقتين بقواهما عسكريا وسياسيا واقتصاديا وتقنولوجيا ، صاحبتي القدرة التي مكنتها من النجاح في معظم المغامرات التي خاضتاها . وهكذا يشعر الشعب

بالحسد نحو الغرب الذى يكنّ له الكراهية .

ان الشعور المؤلم بالنقص عند الاكثر ثقافة وعلما (ذلك الشعور الذي يشل نشاطهم في الحالات المتطرفة) ينبثق في معظمه عن تفوق الغرب الواسع في العلوم والفنون، وتزرعه في النفوس ، زرعا تلقائيا منذ الصغر ، الثقافة التي تنشرها المدارس والكليات الغربية او ذات التأثير الغربي . (ولحسن الحظ قد اخذ هذا الشعور الهدام بالنقص يتضاءل تضاؤلا سريعا ، بفضل ازدياد الثقافة ونمو الصلات الاجتماعية في داخل المنطقة وخارجها مع ابناء الشعوب الاخرى، وبفضل سهولة سفر العربي الى الخارج وتنقله، وازدياد عدد العرب الذين يقيمون في الخارج لمدة تطول او تقصر، وعدد الاجانب الذين يقيمون بين العرب . واخيرا بفضل انتهاء علاقة الحاكم والمحكوم في معظم الدول العربية نتيجة لتحررها سياسيا . وان احدى النتائج التي تدل على هذه الامور هي ازدياد نسبة الزيجات المختلطة بين العرب والشعوب الاخرى) . وعلى عكس الذين يكرهون الغرب وكل ما هو غربي بسبب تفوق الغرب عسكريا واقتصاديا وتقنولوجيا وعلميا ، وبسبب ثقة الغرب بنفسه وعمليته ،توجد اقلية نسبيا بين العرب تحب ان تتنافس واياه . لكن طموحها وامانيها كثيرا ما تتعطل وتتسمم بسبب ما سبق ذكره من الشعور بالنقص وضعف الثقة بالذات . كما ان الخوف (واحيانا الاعتقاد الراسخ) من ان الفشل لا بد ان يكون مصير عملهم ، وان الفشل سيؤدي الى الاستهزاء بهم، ان هم حاولوا ان يضاهوا فناني الغرب وفلاسفته وعلماءه ،يعكر رغبة افراد القلة التي تحب ان تعمل. ويخفف من حماسهم للعمل ، ايضا ، قلة الظروف الضرورية عادة لمثل هذه الاعمال والمنجزات : كوجود بيئة متجانسة اقتصاديا واجتماعيا ، وجماعة تشجع على « امور الحياة الاسمى » وتقدّرها حق قدرها ، وفرص وامكانات لا غنى عنها للبحث العلمي . نتيجة لهذا كله يروح افراد تلك القلة يفرجون عن كبتهم وخيبتهم بالشكوى المرة وبالشفقة على الذات — بل وببغض الناس احيانا ، بينما هم في سرية افكارهم يعيشون على اوهام التمني . وهناك نفر قليل ، اصلب عودا عقليا ونفسيا ، واكثر عزما وطموحا ، ينتج عندهم ميل نحو مغادرة المنطقة مددا تتراوح في الطول والقصر (واحيانا تصبح هجرة كاملة) الى الخارج، الى حيث يأمل اولئك المعذبون الذين ينفون انفسهم ان يحققوا ، بالفعل ، ما كانوا انما يتكلمون عنه ويحلمون به تحت سماء الشرق الصافية والقاسية في آن واحد . انهم ينفضون عن اقدامهم غبار هذه الاراضي الذهبية ، ويسافرون عبر الافق بالبحر او الجو . انهم كثيرون ما يسافرون وفي قلوبهم اسى وعيونهم متعلقة بما تركوه . ولكنهم يمضون ، — كيما تفسح الكلمات، اخيرا، المجال امام الفعل ، وكيما ينتصر فجر الاعمال على ليل الخمول والتقاعس الممض الطويل.